انعاش الاشكاليات العلائقية للنسق الاسري في ظل اجراءات الحجر الصحي

Relational problematic reactivating within the family system during the quarantine measure

بـ ومعزة فتيحة*

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 (الجزائر)، boumaza_fatiha@hotmail.fr

تاريخ الاستقبال: 2023/01/17 ؛ تاريخ القبول: 2024/11/04 ؛ تاريخ النشر: 2025/02/10

ملخص: تسعى هذه الورقة الى ابراز تداعيات الحجر الصحي الذي فرضته الازمة الوبائية الاخيرة (كوفيد19) في اعادة انعاش الاشكاليات العلائقية داخل النسق الاسري، بالاستعانة بالمنهج العيادي وأداة دراسة الحالة وبالاعتماد على سلسلة من المقابلات العيادية (الحرة والنصف موجهة) ضمن سيرورة التكفل النفسي تم الكشف عن أن:

التواجد وجها لوجه ولفترات طويلة يوميا خلال مرحلة الحجر الصحي أدى الى اعادة سحب الاستثمارات العلائقية مع الصور الوالدية البدائية الى الساحة النفسية لدى المراهق (حامل العرض)، الامر الذي شكل صعوبة بالغة في عملية التكفل النفسي لمسايرة الدينامية النسقية الصراعية المزدوجة، هذه الاخيرة تم صياغتها ضمن محورين رئيسيين: يتمثل الاول في اشكالية التكاثف الاجرامي الذي يتغذى على صراع الهوية وصور والدية ذات طابع سُمي؛ اما الثاني فيلعب في سجل مقايضة الصراعات النسقية التي فرضتها فترة الحجر الصحي بعملية الانفصال الحتمية.

الكلمات المفتاح : نسق أسري، حجر صحي، اشكالية علائقية، حامل العرض، تكاثف اجرامي

Abstract: In a psychotherapeutic process, and with the help of a clinical approach, case study, and a series of clinical interviews (open and semi-open), we retrace the repercussions of the quarantine implied by the pandemic crisis (Covid19) on the reactivation of relational problems within the family system. The article specifically highlights that:

During isolation; daily and prolonged face-to-face contact shifts investments linked to parental imagos onto the psychic space of the adolescent (symptom carrier); Which leads to great difficulties in the care process to follow the double systemic conflictuality, which revolves around two axes:

- The first is the criminal condensation which feeds on identity conflict and toxic parental imagos .

- The second is played out in a register of exchange of systemic conflicts generated by the duration of the quarantine with processes of separation;

Keywords: Family system, Quarantine, Relational problematic, symptome carrier, criminal condensation

* بومعزة فتيحة .

تمهيد :

يضعنا العمل اليومي بمركز المساعدة النفسية الجامعي خلال الجائحة في مواجهة العديد من التظاهرات العيادية المرتبطة بصراعات النسق الاسري ومرحلة المراهقة وإشكالية الهوية. صراعات متعددة ومتفرعة تغطي مظاهر مختلفة لعملية النمو وتكشف عن هشاشة التركيبة الداخلية للمراهق، اعتبرها Luigi α al« دون شك احد أهم الجوانب لما يحدث في العالم النفسي للمراهق» (p47, 2008)؛ وهي من وجهة نظر Erick Erikson (1972) "الأزمة الأكثر شدة وتعقيدا تحدث في هذه الفترة وتدفع إلى بناء وتشكيل معنى الهوية الذي يعكس إحساس صلب عن الذات واكتساب هوية جنسية ثابتة".

لا يمكن استثناء هذه الاقتصادية الداخلية سواء الفردية أو النسقية أثناء الالتقاء العيادي مع افراد الاسرة. كما لا يمكن التدخل بعيدا عن العلاقة التقاطبية التي تتطلب وتستدعي استثمارات نفسية على درجة عالية من المرونة والليونة النفسية في مقابل إشكاليات علائقية تمتد جذورها في مسار وتركيبة النسق العائلي، عاودت الظهور بدرجة أكثر حدة مع الظروف التي فرضتها الأزمة الوبائية ذات الاستمرارية الزمنية.

تضطر العائلة وفي ظروف حتمية مماثلة الى اختيار حامل للعرض يكون دوره الاساسي هو الحفاظ على التوازن الظاهري للنسق ككل حتى وان كانت المعاناة شديدة، غير محتملة، وذات أبعاد متعددة.

لا شك أن تركيبة النسق العائلي ومحتوياته التي تتميز بطابع السّمية تكون نتيجتها واضحة في الاختلالات التي يواجهها حامل العرض الذي يعاني من إشكالية معقدة الجوانب، وفي محاولاته المستميتة للملمة بقايا الهوية، هذه العملية ستشكل لا محالة تهديدا حقيقيا لاستمرارية إحساسه بالوجود.

ثم إن تواجد أفراد النسق العائلي في فضاء واحد ولمدة قد تتجاوز 20 ساعة يوميا ولفترات تمتد لشهور بسبب إجراءات الحجر الصحي التي تزامنت وانتشار الوباء (كوفيد19) لها من الانعكاسات السلبية ما يعيد اختبار صلابة القواعد العلائقية داخل النسق، وظيفته وفعاليته. هذه الظروف (التواجد وجها لوجه، الديناميات البين-ذاتية، والبين-شخصية، الذاتية والغيرية) تدفع إلى إعادة سحب الصدمات المبكرة نحو الوعي وإعادة معايشتها عبر أزمات نفسية جديدة.

المنفذ الوحيد المتاح لهذه الدينامية أمام المراهق حامل العرض الذي يتميز بضبابية الحدود وفقر الاستثمارات الاقتصادية هو الميل الإجرامي للتعبير الرمزي عن الواقع الداخلي الذي لا يمكن بأي حال احتواؤه. بالمقابل تشكل تغيرات النمو إضافة حتمية مفروضة عليه تضاعف من إشكالية الوجود الذي يصبح مستحيلا دون الرجوع إلى الفعل، ويبقى التساؤل المطروح حول دور الظروف الخارجية وبالتحديد ظروف الحجر الصحي في إزاحة الصراعات الداخلية وبالخصوص الصراع المرتبط بتشكل الهوية نحو المشهد الخارجي؟ والى أي مدى يمكن للتواجد وجها لوجها مع الوالدين أن يجر إلى مضاعفات سلوكية خطرة؟ وهل يمكن إعادة مناقشة الميل نحو الحفاظ على توازن النسق بالعودة إلى متغيرات الهوية، الحجر الصحي؟ وهل يمكن أن تؤدي اجراءات الحجر الصحي الى اعادة انعاش الاشكاليات العلائقية للنسق؟

1. الازمة الوبائية والإجراءات المصاحبة:

بتاريخ 30 جانفي 2020، قرر المدير العام لمنظمة الصحة العالمية أن فاشية مرض فيروس كورونا (كوفيد 19) شكل طارئة من طوارئ الصحة العمومية التي تثير قلقا دوليا. وأن الدول الاعضاء في المنظمة تدرس الخيارات المتاحة للوقاية من تفشي المرض. وقد شملت تدابير الوقاية المتخذة في مجال الصحة العمومية فرض الحجر الصحي على الافراد ينطوي على تقييد حركتهم او عزلهم وفقا لأحكام المادة 03 من اللوائح الصحية الدولية (منظمة، 2005) .

والجزائر كغيرها من أعضاء المنظمة كانت من بين اولى الدول التي تبنت سياسة الحجر الصحي كتدبير استعجالي مبكر تفاديا للعواقب الوخيمة للجائحة، وبالرغم من أن هذا الاجراء جاء للتخفيف بشكل كبير من تداعيات الجائحة على الافراد خاصة وحمايتهم من خطر الموت، إلا انه وفي ذات الوقت كان سبب في بروز العديد من المشكلات النفسية داخل الفضاء النسقي بالتحديد. حيث شهد الاشخاص مستويات مرتفعة من القلق والضغوط النفسية بسبب التسارع الكبير في وتيرة الوباء، ارتفاع رهيب في الارقام المعلن عنها حول الوفيات ومعاناة اغلب العائلات من فقدان احد أفرادها، تغيير نمط الحياة في ظل العزلة الاجتماعية.

وأشارت الدراسات الى أن مصادر الضغوط النفسية خلال فترة الحجر الصحي تتمثل في مدة الحجر التي يمكن أن ينجر عنها اذا ما تجاوزت 10 أيام ظهور اضطرابات الضغوط التالية للصدمة، الغضب، وسلوك التجنب. الخوف من العدوى، حالة الاحباط والملل التي تنتاب الاشخاص بسبب المكوث في مكان واحد يمنعهم منممارسة نشاطاتهم الاعتيادية الطبيعية، نقص الامدادات. يضاف الى هذا كله دور الاعلام والجهات والصحية التي تورد معلومات غير كافية ومعتمة تدفع أكثر الى حالة من التعقيد والتشويش الذهني وعدم اليقين (Samantha, 2020).

لم يتوقف الامر عند هذا الحد حيث صاحبت الفترة التي تلت تخفيف تدابير الوقاية مباشرة تظاهرات اجتماعية ونفسية خطيرة تمحورت حول التعاطي الخطير للمواد المخدرة، مشكلات سلوكية واضطرابات نفسية متعددة شكل الحجر الصحي عاملا مفجرا لها. وهو الامر الذي وقفنا عليه بمركز المساعدة النفسية من خلال عدد وطبيعة طلبات التكفل في فترة ما بعد الحجر مباشرة.

2. النسق الاسري بين السواء واللاسواء :

يتغير مفهوم الاسرة في ظل الرؤية النسقية من معناه التقليدي الى معنًا أكثر شمولا ودينامية، حيث يأخذ مفهوم النسق وهو المفهوم الذي يطلق على الاسرة بعين الاعتبار اهمية مراحل تبلور وتطور النسق. ادوار ومهام الأفراد. الاستثمارات الداخلية والخارجية لكل فرد من أفراده، والغاية من ذلك هي الحفاظ على توازن واستمرارية النسق.

كما ان النسق الاسري هو ذلك الكيان الحي المعقد الذي يتميز بالضبط الذاتي، التغيير والاستقرار عمليتين ضروريتين لبقاء النسق، ويضم السيرورة الدينامية العائلية، يسعي الى الحفاظ على بقاءها واستمرارها وتطويرها، وهو الكل المركب من أفراده وما يحيط بهم، يتميز بالدينامية العلائقية والتفاعل المستمر بين أفراد الاسرة والمحيط الخارجي ضمن السياق .(Albern & Albern, 2000, p93)

تعكس هذه الوضعية الاخيرة حالة السواء التي تعرفها الانساق عامة، بالمقابل يمكن ان يكون توازن النسق ظاهريا يلجأ أفراده الى استراتيجيات علائقية غير سوية (مرضية) لتحقيق هذه الغاية. تشكل استراتيجية كبش الفداء او حامل العرض أحد اهم الاستراتيجيات التي يتبناها بعض أفراد النسق (يمكن ان يكون احد الابوين او كلاهما معا) لأجل مسايرة عملية تفريغ الصراع، اين يتحمل احد أفراده (كبش الفداء) الامر ويتقمص الدور ويتقبله بصورة لاشعورية تجنبا لتصدع النسق وتفككه. تنعكس استراتيجية كبش الفداء في جملة من

الاعراض النفسية، الانفعالية، والسلوكية مشكلة المعاش اليومي المرضي لدى الفرد. في بداية ظهور هذه التغيرات يلجا افراد النسق للبحث عن حلول داخلية عن طريق الاتصال أو بالاستعانة بأساليب سلوكية غير توافقية كالعنف اللفظي والجسدي.

مع هذه السيرورة المرضية داخل النسق تأتي الظروف البيئية ممثلة في الازمة الوبائية الناجمة عن فيروس كورونا (كوفيدَ 10) وإجراءات الحجر الصحي لتغذي هذه الاقتصادية، أين يفقد النسق القدرة على تسيير واحتواء القلق الذي يطفو الى السطح، فقدان الضبط الذاتي، يكتسح الاحساس بالذنب الساحة النفسية، ويتم اقصاء بعض الافراد لتجنبهم الالم؛ ويصبح طلب المساعدة من الانساق الخارجية ضرورة استعجالية بهدف اعادة ترميم النسق.

وترى (قاسي، 2011) أن اضطراب النسق الاسري يعكس فقدان القدرة على التحكم الذاتين الاستقرار وتجاوز التغيرات الداخلية والخارجية، مسايرة التكيف مع المتطلبات الجديدة للسياق، غموض الحدود السائدة بين الافراد وتحالف بعض الافراد ضد افراد آخرين أو ضد فرد واحد داخل النسق، اضطراب عند مستوى ميكانيزمات رد الفعل ووضع حلول سلبية للصراعات؛ وعليه فان الشذوذ ف حوض النسق الاسري ليس بقضية فردية وإنما عبارة عن توتر السيرورة العلائقية الداخلية للنسق.

ثانيا: المقاربة المنهجية:

ان المعطيات الثرية التي تتيحها عملية توظيف مخرجات الممارسة العيادية تشكل قاعدة بيانات رصينة وحقيقية عن طبيعة الصراعات والاضطرابات التي تعاني منها الانساق المحلية، ويمكن اعتمادها دون تردد وبعد الموافقة المستنيرة لأصحابها في عملية التنظير كونها تعكس متغيرات البيئة الاجتماعية صراحة، كما ان صبها في قالب بحثي يحتم علينا اتباع المنهج العيادي باعتباره انسب المناهج لإبراز هذا الواقع.

في هذا الشأن كما سيق القول تم تبني المنهج العيادي الذي يستند الى أداة دراسة الحالة؛ وفي اطار اجراءات التكفل النفسي تم تتبع تطورات الحالة بمنطق مزدوج (نسقي وفردي) وفق منهجية تتماشى واحترام زمنية الطرح الذي فرضته الدينامية العلائقية خلال المقابلات العيادية (النصف موجه والحرة).

ثالثا: عرض الحالة:

1- الحجز الصحي العامل المفجر لأزمة النسق العائلي:

طلب الكفالة النفسية الموجه من طرف الأم بحضور المراهق حامل العرض يشير صراحة إلى اضطراب النسق الأسري، العمل على إدماج المراهق داخل عملية التكفل يتطلب مجهود مضاعف اتجاهه وبنفس الدرجة اتجاه الوالدين. في هذه الحالة الوقوف على الأنماط العلائقية التي تجمع بين أفراد النسق، شكل التعلق وتمثيلاته ومدى مرونته لدى المراهق أمر لا مفر منه. هنا بالذات تستدعى سيناريوهات النسق الأسري المبكرة إلى الواقع لإعادة ترميم ما يمكن ترميمه في الهنا والآن.

اللقاء الأول تم مع الأم التي سعت إلى تمثيل نموذج النسق الأسري بأبعاده المرضية، واجهت صعوبة بالغة في اختيار نقطة الانطلاق؛ بالرغم من دفعها نحو التداعي بحرية. مؤشرات المعاناة النفسية كانت ظاهرة في تعبيراتها اللفظية والجسدية. تركيزها كان منصبا على النسق ككل، وأثناء سردها للأحداث كشفت عن أعراض تفكك. كما أن تنقلها بين المشاهد كان مفتعلا وانتقائي في محاولة لجذب الانتباه بصورة مباشرة نحو صدمة نفسية نسقيه أزيحت للسطح بسبب الأزمة الصحية التي وضعت أفراد النسق ككل ولمدة طويلة ضمن

فضاء مشترك مما جعله شبيها "**بكتلة عاطفية غير متمايزة ومندمجة، ومكانا للقلق العائم غير العقلاني مع ارتباطات عاطفية مرضية قابلة للذوبان، هذه العلاقات المزدوجة غير مستقرة في حالات الصراع** "(Bowen Murray 1913-1990: Balas, 2008) .

وقد اشار كفافي الى ان هذه الوضعية تهدف الى تغطية المشاعر الحقيقية لتجنب الصراع الاصيل الحقيقي وهي من الوسائل والاستراتيجيات التي تلجأ اليها الانساق لتحافظ على كيانها وتوازنها وبقاءها على الرغم من قدر اللاسواء الذي تتسم به العلاقات. يستخدم هذا النوع من اللاستراتيجيات والمسماة التعمية عندما يبدا أحد افراد النسق في تهديد الوضع القائم عن طريق احداث تغيير ما (1999، 151). من حين لاخر كان خطابها عن المراهق متذبذبا بين تمثيلات نفسية عن دور الضحية، ترتبط بشكل رئيسي بالعلاقة بالاب الذي يظهر قمعيا، عنيفا وناقدا؛ ثم دور المحرر الرئيسي للالم النفسي الذي يشهده النسق العائلي. ضمن هذه الدينامية يميل المراهق نحو "**استراتيجيات سلوكية وعلائقية تنهج طرقا مختلفة تهدف الى البحث عن الامان، التحكم في المحيط وهي انعكاس لاعراض او اضطراب في السيرة. يتم استيعابها وفهمها عبر ثلاث مستويات: 1) كتعبير عن معاناة نفسية فردية، 2) موجهة ضمنيا لجلب الانتباه، 3) تملك وظيفة الحفاظ على استقرار الاختلال الوظيفي للنسق العائلي المتبلور لفترة من الزمن حول المراهق الذي يأخذ مكانة العميل ودوره الذي اصبح مرضيا**" (Ausloos, 1995 ; Delage, 2008). ويدفع الى التساؤل حول من الذي يعاني اكثر في الاسرة ام ان المعاناة مشتركة وتمس الجميع دون استثناء؟

الاستجابة للنداء في هذه الحالة يجب تناوله ضمن هذه المستويات الثلاثة، ولكن بترتيب عكسي، أين يأخذ الاختلال الوظيفي النسقي صبغة استعجاليه وصولا إلى المعاناة الفردية. التي حتى وان كانت شديدة لا يمكن أن تكون أولوية راهنة. وبسبب الواقع المفروض كان لزاما علينا:

1) استقبال الوالدين لإدراك إشكالية النسق التي تمتد جذورها إلى مراحل سابقة، إلى تركيبة شخصية الأب، إلى العلاقة داخل الزوج الوالدي، طبيعة الاستثمارات العلائقية.
2) الدور الذي يلعبه المراهق بمقابل وجود واستمرارية النسق.
3) التصورات المرتبطة بإشكالية الانحراف المتعدد لدى المراهق.

وعليه أثناء الجلسة كان التركيز منصبا على معرفة درجة ومرونة النسق. أين وقفنا على زوج والدي يحتل فيه الأب كل المساحة التفاعلية، بينما تجلس الأم بطريقة جانبية مستسلمة تتدخل بعبارات تحمل معنى اللوم والإدانة اتجاه الزوج. الذي يبحث من جهته عن سند خارجي لتبرير استثماراته النفسية اتجاه المراهق. اقتصادية النسق تلعب في سجل مرضي يتحمل المراهق العرض كإستراتيجية علائقية للتفاوض حول الانفصال.

صورة النسق العائلي الحالية التي تتجسد حسب تصورات الأب، الأم، المراهق تأتي في الجينوغرام (génogramme) على الشكل التالي:

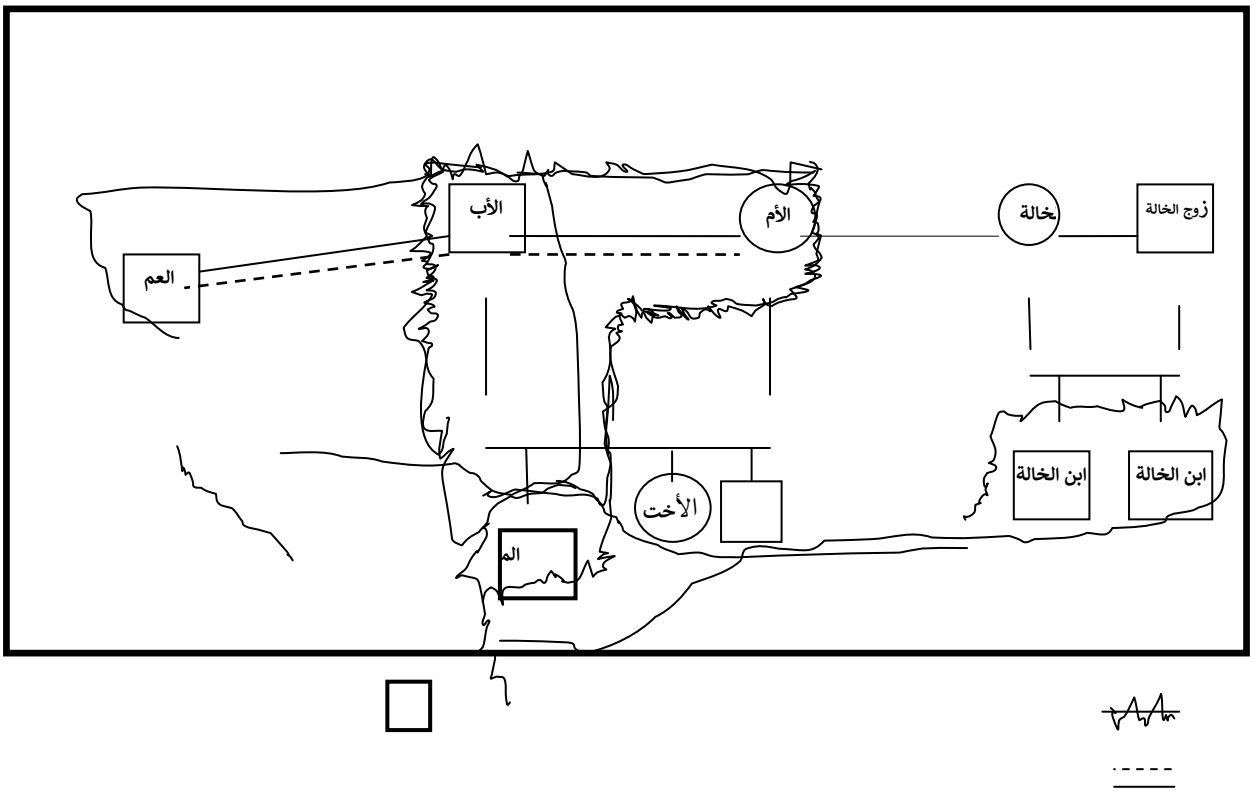

-شجرة العائلة Le génogramme de la famille-

يظهر **الجينوغرام** تركيبة النسق العائلي حسب تصور المراهق نفسه. تتداخل في هذا أشكال التفاعل: في الثلاثية أم-مراهق-أب يأخذ شكل خلط صراعي شديد يستمد ويستمر عبر مجال علائقي خارج النسق الأصلي حيث تلعب إستراتيجية المقارنة دورا بارزا في مقايضة الصراع داخل الثلاثية. مع الأم يستند المراهق إلى العلاقة مع أبناء الخالة لإعادة تشكيل الاقتصادية العلائقية حيث تتعرى الذات بأبعادها المرضية عن طريق المقارنات وهي الوسيلة المتاحة أمام المراهق لاستعادة الديون العلائقية التي ترهق كاهل الأم بسبب وضعية الانسحاب وعدم توفير الحماية. بالموازاة يستند الأب على العلاقة مع العم لتأكيد مبررات استخدام القمع والنقد واستخدام السلطة ضد المراهق. في حين يستثنى من العلاقة الأخ والأخت. بهذا الوصف يمكن التأكيد على الدينامية المرضية للنسق العائلي ودورها في تبلور نواة التكاثف الإجرامي لدى المراهق.

ان الصعوبة الراهنة في اداء الادوار الوالدية دفعت بهم الى التهرب من مسؤولياتهم، الى التستر لتجنب مواجهة الصراعات أو تحملها، بالنتيجة وبهذه الصورة تبدو الوظائف الوالدية غير متمايزة وفاقدة للمعنى(Rosane, 2004)

2- التكاثف الاجرامي ضمن الخلفية الدينامية للنسق الأسري في ظل الحجر:

سبب طلب المعاينة يدور حول مشكلة الإدمان المتعدد poly-toxicomanie يبدو للوهلة الأولى دافع كلاسيكي يعاني منه نسبة كبيرة من المراهقين الذين يظهرون اضطراب في الهوية وصعوبة في تجاوز البلوغ وكل ما هو بلوغي، وما يحمله من مهام قاسية على المراهق الذي يعاني أساسا من هشاشة داخلية. آثار الجرعة الزائدة خلفت خلل كبير داخل النسق الأسري ورعب شديد لدى الوالدين اللذان استجابا مباشرة بوضع المراهق تحت الفطام الجبري المفاجئ. هذا الأخير بدوره ولد أعراض عديدة منها: الهذيان، الهلوسة، الأرق، الهيجان والعنف. كانت السبب وراء عرضه على طبيب عقلي الذي وضعه تحت العلاج الدوائي. هذه الحالة جعلته يلتحق بالجلسة وهو في حالة غرابة مقلقة، لا يستطيع التجاوب، ضعيف التركيز مشوش الذاكرة. إلى هنا تبدو الأمور كلاسيكية لكن بالرجوع إلى تاريخ الحالة خلال المقابلات العيادية اللاحقة يتبلور المشهد العام للمعاناة الفردية والنسقية، بالأخص في السنتين الأخيرتين وبسبب الظروف الوبائية وإجراءات الحجر الصحي الذي فرض أبعاد زمنية ألغت معالم الحياة السابقة. الروابط الاجتماعية التي كانت تحكمها تقاليد معينة أصبحت تحمل معنى التهديد ومصدرا للقلق، ومع مرور الوقت معنى التدمير.

الحجر الصحي كذلك قيد من حرية المراهق ووضعه في مواجهة يومية لحظية مع الرقابة الوالدية. هذه الأخيرة من جهتها وجدت نفسها في حالة فراغ بعدما كانت مستنزفة في مهامها الوظيفية. ما جعلها تستفرد بالمراهق وتلاحق تحركاته. مع استبعاد كلي لباقي أفراد النسق. الدينامية العائلية تعاني من صعوبة بالغة في التفاعل والتواصل خاصة على مستوى سجل المشاعر والانفعالات فكل طرف يسعى لإيجاد مكانة مغايرة ومختلفة عن الآخر. ثم إن إشكالية الانفصال ليست مرتبطة بالمراهق فحسب، بل تمس الزوج الوالدي.

من ناحية المراهق يبدو أن أوالية الصراع قد حسمت لصالح المتغيرات الداخلية المدفوعة بالتجاوز النزوي الذي يتغذى على الأنماط العلائقية بالصور الوالدية، غياب الحدود وفشل وظيفة الاحتواء مقابل نظرات الآخر باتت تشكل تهديد حقيقي للهوية والفردانية معا.

لا يتم معايشة هذه الدينامية في الواقع، بل تفرض المتغيرات الداخلية وعلى رأسها الصور الوالدية البدائية فضاء وهمي يسمح للمراهق أن يتفاعل فيه ومن خلاله مع مصدر القلق المتمثل في الالتقاء وجها لوجه مع الآخر. وهي حالة هلوسة سلبية أشار إليها Green 1983 لتفسير عملية إنكار وجود إدراك أو موضوع ما، ترتبط بتمثيلات العلاقة بالأم أين تحتل هذه الأخيرة الفضاء الداخلي المفرغ من محتوياته لدى المراهق الذي يبقى تحت رحمة الظروف التي فرضتها العزلة الاجتماعية وتغير العادات اليومية والانفصال عن الأقران بسبب الجائحة.

يمكن لهده التمثيلات أن تصبح مكان وموضوع للتدمير الداخلي. في هذا التوقيت الحرج تتدخل المادة المخدرة التي من شانها إحداث تعزيز للسجل الحسي الذي يدفع بدوره إلى تحولات على مستوى إدراك الواقع (Green, 1995). وهو ما بحث عنه المراهق صراحة خلال المنحى التصاعدي للمسار الاجرامي من خلال الجرعات الزائدة والرجوع الى الفعل كمهدئ للحركية النزوية التي تجتاحه في ذروة المراهقة والتغيرات الجسيمة المصاحبة.

دعوة المراهق (حامل العرض) للحديث عن مراحل حياتية سابقة كانت صعبة للغاية. اكتسحت المقاومة مسرح المقابلة بقوة وكانت أحد الحلول المتاحة لتجنب نظراتنا. سيرورة البحث في الماضي أعادت للمراهق الذي يعاني من الكستيميا شديدة في الأساس محطتين اثنتين. الأولى في سن الخامسة حيث يطفو إلى السطح معاش صدمي نتيجة العنف الممارس عليه من طرف الأب. ومع تذبذب نتائجه في السنوات الدراسية اللاحقة يصور عودته للمنزل ورؤية سيارة والده بالمرعبة، ويصفه بالوحش. أما المحطة الثانية فترجع إلى سن 12 سنة حيث أول تجربة لسلوك إيذاء الذات الذي تشهد آثاره على الغلاف الجسدي قسوة المشهد الداخلي. في ظل كل هذا فضلت الأم الاكتفاء بدور المنهزمة المتفرجة والمنسحبة من المشهد لترسخ في ذهن المراهق صورة لنمط تعلق مختل وغير امن. يلاحظ دوما لدى والدي هذا النوع من المراهقين هشاشة وصعوبة في دعم النزاعات، في تموضعهم بوضوع في وظيفتهم الابوبة، ما يقودهم الى اللجوء الى المواقف المتطرفة فلا هم يعرفون كيفية المنع والسماح إلا بالاستسلام، أو عدم التموضع والمنع المنمنهج (Rosane, 2004)

يصاحب سلوك إيذاء الذات أو تجريح الجلدself mutilation حالة من الإحباط، الاكتئاب، الرفض، القلق، وهو سلوك متعمد يجعل الفرد مشوشا confused حول حقيقته الداخلية والخارجية، يهدف إلى التخلص من الألم العاطفي، القلق، التمرد على السلطة أو ابتزاز الآخرين (Zela α Kiselico, 2001: المومني و شواشرة، 2013). ارتـ بطت عملية تفريغ القلق ومعاينة الصدمات بصورة حصرية بجسم المراهق الذي يعاش كمصدر للفشل والاحباط.

حسب Anzieu (1945) ونموذج الانا الجلدي فان الجهاز النفسي ومنذ الاشهر الاولى يختبر الحاجة الى غلاف نفسي يضمن حتمية استمرار حالة الراحة النفسية الاساسية، ولاجل ذلك يتم الاستعانة بتشكيل أنا-جلدي عن طريق اولى التجارب الادراكية للجلد باعتباره ممثلا للسطح وعليه يعرف مفهوم الانا-الجلدي على انه تشكيل يستخدمه انا الطفل خلال المراحل المبكرة من النمو لاجل تمثيل نفسه كحاو للمحتويات النفسية. تكمن الوظيفة السلبية او وظيفة التدمير الذاتي مهاجمة الروابط في جانبها السلبي، ترتبط مع نزوة الموت وتهدف الى التدمير الذاتي للجلد وللذات من خلال هذه الوظيفة يعوض البحث عن الحب بواسطة الحقد والعنف، كما يعوض انعدام وجود الموضوع الامومي بالهلوسة السلبية (بومعزة، 2017).

كما ان تجربة ايذاء الذات في هذه السن المبكرة كان الهدف من وراءها معايشة الاحساس بالوجود او الواقعية وهي دليل على الرغبة الملحة في استحداث هذا الشعور الذي يبدو منعدما في هذه السن. ويدفع للتساؤل حول حقيقة الإشكاليات الداخلية التي تموضعت مبكرا في حياة المراهق. الأمر الذي يزيد من صعوبة وخطورة التعامل مع هكذا مركبات سواء على المراهق أو بداخل العلاقة العيادية.

مع هذه الخاصية يمكن أن ينحصر دور التحولات الجسدية والنفسية والعلائقية للمراهقة التي إذا ما كانت المحرك الرئيسي لهذه التصرفات فهي مؤشرات قوية على نوعية القواعد النرجسية السابقة. لصالح خلفية إنحرافيه بامتياز، وبالتالي تزامنا مع وظيفة التنفيس والتخفيف من القلق التي يضمنها هذا السلوك في ذلك الحين؛ يبدو أن الدور الرئيسي كان الدفع نحو تجربة الإدمان التي أتت بعدها بمدة قصيرة (كل أنواع الأدوية- القنب)، تزايد الجرعات مع مرور الوقت وبأنواع مختلفة من المواد المخدرة.

تجربة الإدمان بالنسبة للمراهق ومع خصوصية المادة المخدرة التي يميل أكثر لاستهلاكها كانت عن طريق الصدفة، لم يصاحبها أي شعور بالندم، فقط كان هناك إحساس داخلي بالتحرر بالرغم من أن الأمر حسبه لم يرجع لطبيعة المادة (الصاروخ) بل لطبيعة التجربة التي تمت رفقة صديقه المقرب في جو من الأخوة والإحساس المتبادل بالآخر ومشاكله. في حين يتم معايشتها بطريقة سرية

لا يعيها الوالدين في بداية الأمر بالنظر إلى آليات التواصل مع المراهق المتمركزة فقط حول ضعف النتائج الدراسية. الرمزية التي حملتها هذه التجربة لها مبرراتها الداخلية والنسقية لدى المراهق. ويمكن الوقوف عليها في النقاط التالية:

3- داخل النسق ليس هناك وجود حقيقي للمراهق، الطبيعة التسلطية العنيفة والناقدة للأب بمقابل ضعف الأم تظهر هشاشة التمثيلات الوالدية التي لا يمكن الاستناد إليها لتشكيل الفضاء الداخلي وبالتالي فهي تشكل خطر على عملية الانفصال الضرورية لتجاوز المراهقة. بنفس الحال آلية التقمص التي تختل معالمها. وقد فسر هالي في نظريته حول الانساق هذا الوضع انطلاقا من مبدأه القائل بان كل نسق يميل الى الاتزان ولذلك تلجا عناصره الى خلق اتحادات وتحالفات فيما بينها لتصبح القوى الناتجة عن الاتحاد مكافئة لقوى أخرى داخل النسق، ويعتبر هالي ان من بين أهداف التحالف المعكوس وهو احد انواع التحالفات هو تحقيق غاية الاتزان، حيث ينتشر هذا النوع في الاسر التي يتميز فيها أحد الوالدين بالسيطرة والقمع حيث يتحد مع طرف آخر ضد الطرف الضعيف ليحقق هدفه. كما وأشارت العديد من الدراسات التي قامت على دراسة الانساق الاسرية الى ان العلاقات القائمة على عدم تلبية حاجات الفرد والبرودة العاطفية تخلق لديه حالة من الفقر العاطفي الشديد وعدم القدرة على تسيير العلاقات البين-شخصية، وتعتبر هذه الخاصية السمة البارزة لدى الانساق المضطربة.

4- البحث عن بديل ليكون متنفس لوضعيات الإحباط المتكررة الناتجة عن العلاقة بالأب فهو نموذج تقمصي مقلق. هو تكرار تجربة الإدمان ومع كل تكرار يكون البحث عن نوع آخر أكثر تأثيرا. أو تناول أكثر من نوع وبجرعات زائدة لملئ الفضاء الداخلي الذي يزداد اتساعا وتغيب حدوده مع مرور الوقت.

5- إدراك سلبي عن الذات. مصدر العاطفة بالنسبة إليه غير كاف مع تقلص دور الأم في التفاعل النسقي (أم-مراهق-أب)، وعدم قدرتها على حماية المراهق من موجات العنف والغضب المتكررة. هذا الواقع لا يسمح له ببناء جهاز حماية خاص به؛ في هذه الحالة فان رمزية تجربة الإدمان بعيدا عن نوع المادة وكميتها تلك تكمن في وظيفة التحطيم Lacan 1975 وتعني إحداث انفصال بين الفرد ومكانته كموضوع في الواقع.

انعكاس هده الوضعية الأخيرة والخطيرة على الدينامية النفسية وعلى تشكل معالم الشخصية تظهر في المحطات الأكثر انحرافا في تاريخ المراهق أو ما نطلق عليه مصطلح **التكاثف الإجرامي**. حدث في ذروة المراهقة مابين سن 16 إلى 18 سنة بمقابل سنوات الجائحة. مع ظهور مشكلات دراسية، الانقطاع المتكرر، تناول المخدرات خلال فترة الدراسة، التعامل مع جماعات منحرفة بغرض الحصول على المخدر والاتجار به؛ وممارسة الأفعال المنحرفة: السرقة، السطو على الممتلكات، التحايل، الاعتداء الجسدي الضرب والجرح العمدي، ومحاولات انتحار متعددة. التصعيد في وتيرة الجريمة جاء مباشرة بعد فترة الإغلاق الكلي الأولى التي عرفتها البلاد في 2020.

في حقيقة الأمر يرجع مفهوم التكاثف منفردا في اللغة التحليلية إلى "**أحد النماذج لعمل العمليات الأساسية اللاواعية. حيث يمثل تصور وحيد عدة سلاسل من الترابطات نظرا لوقوعه عند نقطة تقاطعها وتوظف فيه من وجهة نظر اقتصادية. الطاقات المرتبطة بهذه السلاسل المختلفة من خلال تجمعها فيه، يكون فاعلا في تكوينات لا واعية، فالتكثيف هو أحد خصائص الفكر اللاواعي حيث تحقق العمليات الأولية الشروط التي تتيح وتيسر التكثيف [...] والتكثيف كالإزاحة. عملية تجد مرتكزها في الفرضية الاقتصادية حيث تأتي كل الطاقات التي أزيحت على طول مختلف السلاسل الترابطات كي تتجمع عند التصور المحوري،**

وذلك يتناسب مع مقدار شدة التوظيف الذي تستقطب باعتبارها وليدة التكثيف" (لابلانش و بونتاليس، 1997، ص-ص 191-192).

ظروف تواجد المراهق رفقة والدية خلال الحجر يمكن ان تكون شبيهة بوضعية المرآة. فقد اصبحت الاوقات التي يقضيها داخل المنزل طويلة، يكثر فيها الالتقاء، التفاعل والتواصل. طبيعة هذه الاخيرة التي تتضمن المراقبة المستمرة، النقد، التجريح وسلسلة العنف اللفظي من طرف الاب. من جهة الام ملاحقة ما يحدث من بعيد ولكونها غير قادرة على صد الاب فانها تحاول لعب دور الوسيط العلائقي الذي يلقي بكل استثماراته على المراهق لايهامه بالدور الجوهري الذي يمكن ان يلعبه التغيير في تصرفاته وتقبل ردود فعل الوالد في تقليص حجم المعاناة للمراهق وللنسق العائلي ككل. العزلة الاجتماعية في حقيقة الامر سمحت لكل من المراهق ووالديه بالتواجد في وضعية المرآة و"**الحاجة الى الفحص المطول والمتكرر مقابل سطح او واجهة عاكسة، ترتكز عملية الفحص على الوجه وجميع الجسم. لا يتعلق الامر بنظرة عابرة وانما عملية فحص دقيقة، مكررة بطريقة لا نهائية متبوعة بتغيير الوضعية بين القرب والبعد عن المرآة. لا يظهر هذا الاضطراب في صورة كلية الا عندما يشعر الفرد انه مجتاح بواسطة المركبات اللاشعورية، الصورة التي تظهر في هذه الحالة تستدعي رد فعل تعويضي وتتضمن بعد يدفع، يفاجئ الشخص، يتحكم به. ويمكن ان يسوقه نحو تكسير المرآة. وهو ما يفسر العلاقة بالصورة"** (Thibierge, 1999) .

خاصية الازدواجية التي حملتها اجراءات الحجر الصحي تكشف من جهتها عن الخصائص العلائقية بين المراهق ووالديه، من جهة المراهق الصورة التي تعكسها ردة فعل الوالد اتجاه سلوكه تعري القواعد النرجسية التي تشكلت عبر مسار صدمي سابق ومستمر تضاف اليها تغيرات المرهقة لتنتج تشكيلة فريدة من التكاثف الاجرامي، بمقابل تركيبة والدية مرضية. يفسر النموذج التالي وظيفة الانعكاس spéculaire الذي تضمنها وضعية المرآة الشبيهة بتواجد النسق العائلي ضمن اجراءات الحجر اين يتضخم حجم المراهق بسبب التكاثف الاجرامي بمقابل تقلص حجم الزوج الوالدي وهو ما ادى الى هشاشة صورة الجسم. واثر على تركيب الهوية وتشكلها.

التواجد وجها لوجه مع مصدر القلق والسبب الرئيسي في إنعاش الصدمات التي تراكمت منذ الطفولة وحتى مرحلة قريبة بات يشكل تهديد حقيقي على هوية المراهق الذي استسلم لواقع إجرامي يهدف إلى التدمير الذاتي وتدمير الموضوع الخارجي على حد السواء. البحث عن الفناء هو السبيل الوحيد للقضاء على الحركية النزوية التي اجتاحت الجهاز النفسي في ظل إجراءات العزل المفروضة والتي لا يملك المراهق أمامها سوى الاستسلام بسبب دفاعات خائرة وغياب جهاز حماية خاص.

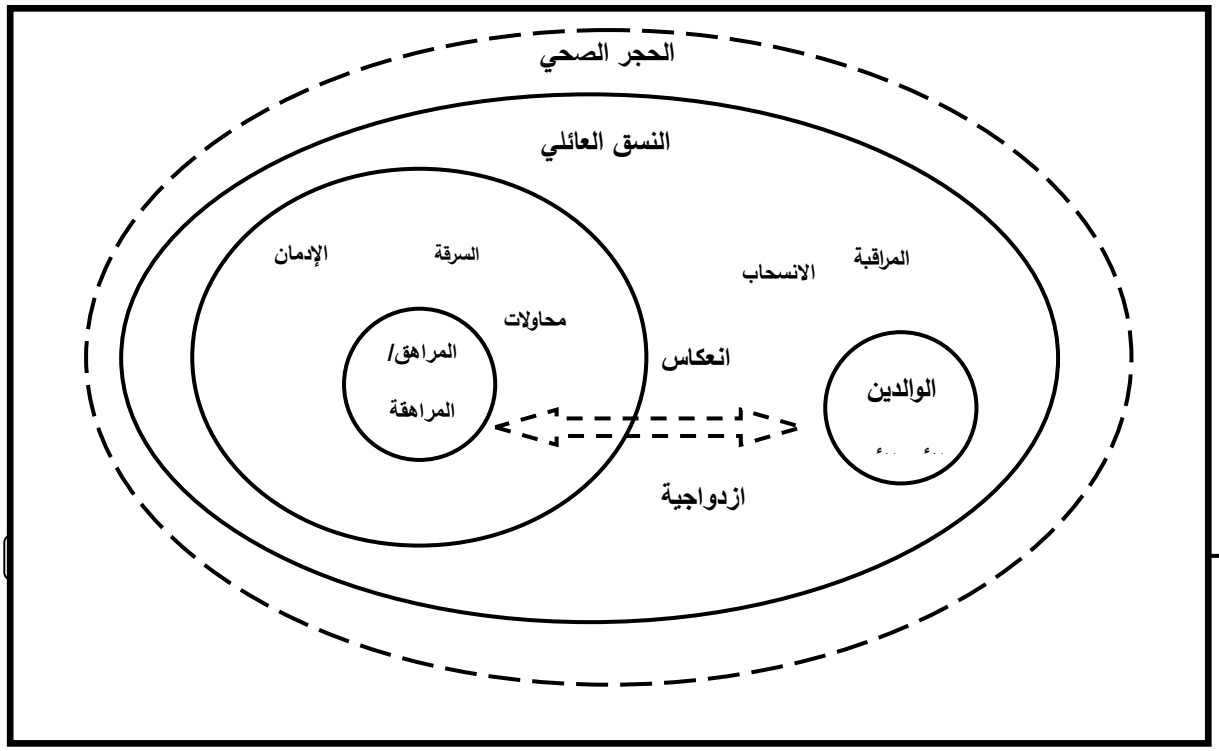

التكاثف الإجرامي

-مخطط النسق الاسري والتكاثف الإجرامي خلال الحجر-

التساؤلات التي تطرح في ظل المفاهيم التحليلية والتحليلية الإجرامية حول التوجه الإجرامي وتشكل الميول المنحرفة خلال مراحل مبكرة من حياة الإنسان تدعو إلى آفاق جديدة للبحث. ينقل لنا هذا النسق تصور مغاير تماما عن الأسباب الدينامية التي تغذي الخلفية الإجرامية وتتفاعل ضمنها في آليات اجتماعية جديدة؛ إعادة إنعاش بعض المركبات في مرحلة المراهقة وفي ظروف خاصة ربما يتدخل وبشكل مباشر في تحديد الميول الإجرامية التي عرفت قبل ذلك في النظريات المفسرة للجريمة والانحراف باختيار نوع وحيد أو اتجاه واحد للفعل المنحرف، أمام هذا التكاثف الإجرامي الذي وضع المراهق في صراع مزدوج على الصعيد الداخلي والخارجي يجب إعادة النظر في آليات تشكل الجريمة ضمن تركيبة الشخصية في مرحلة المراهقة والمستقبل الإجرامي؛ وكذا حول سبل إعادة الإدماج والضبط الاجتماعي؛ ومن ناحيتنا حول صعوبة عملية التكفل التي لا شك أنها ستأخذ مساحة زمنية واسعة وبإشراك جميع الأطراف الممثلة للنسق تهدف بالدرجة الأولى إلى إعادة تشكيل هوية نسقيه متكاملة ومتجانسة.

- الخلاصة:

في الاخير إن ارتباط التكاثف الإجرامي بمرحلة المراهقة وفي ظروف خاصة بالجائحة وإجراءات الحجر الصحي يستدعي الوقوف على واقع الأنساق الأسرية في ظل تغير النمط المعيشي وأساليب الاتصال والتفاعل بداخلها. حيث إن الحجر الصحي كشف عن اختلال كبير داخل الأنساق الأسرية والتغيرات الجذرية التي مست تركيبتها في السنوات الأخيرة. وفسحت المجال أمام علم النفس لتناول هذه الظواهر بالاهتمام والدراسة ضمن سياقات ثقافية واجتماعية متنوعة.

يضاف الى ذلك إعادة طرح قراءات أخرى لتأثير تغيرات المراهقة (الجسمية، النفسية، الاجتماعية، والجنسية) في الظاهرة الاجرامية ومسبباتها الدينامية النفسية. بعيد عن الكلاسيكيات المفسرة لها بالأخص في اتجاه الانحراف واتجاه التفريغ الذي عرف لدى

المراهق الحالي ازدواجية (نحو الذات ونحو الاخر). اشكالية الإدمان في مرحلة المراهقة هي الأخرى أصبحت معقدة غير خاضعة لتوجهات نظرية واضحة من حيث العلاقة بالمادة المخدرة (الاختيار، التأثير، الكمية، طرق الاستهلاك)، مكانتها في الدينامية الداخلية للمراهقة. هنا يعاد طرح التساؤل مرة أخرى عن التصور النظري لمرحلة المراهقة وامتداداته بمقابل الدينامية الداخلية الذاتية والنسقية.

- المراجع :

- الصحة العالمية منظمة. (2005). **البيان المنبثق عن الاجتماع الثاني للجنة الطوارئ المعنية باللوائح الصحية الدولية بشان فاشية فيروس كورونا المستجد.**
- جون لابلانش، و ج ب بونتاليس. (19-97). **معجم مصطلحات التحليل النفسي**، (المجلد 3). (مصطفى حجازي، المترجمون) بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. ص-ص. 191-192
- خليفة قاسي. (2011). **اضطرابات النسق العائلي المدرك وعلاقته بظهور الجنوح لدى المراهقين**. رسالة ماجستير. جامعة تيزي وزو. ص25
- علاء الدين كفافي (1999). **الارشاد والعلاج النسقي الاسري، المنظور النسقي الاتصالي**. القاهرة: دار الفكر العربي. ص151
- بومعزة، فتيحة. (2017)، اسهامات رائز الرورشاخ في دراسة سياقات المرور الى الفعل عند المراهق الجانح، *مجلة العلوم الاجتماعية*، 14(01) 2017، 75-88 https://www.asjp.cerist.dz/en/article/30122 (زيارة 2022/10/10)
- فواز ايوب المومني، و عمر مصطفى شواشرة (أفريل، 2013)، سلوك ايذاء الذات وعلاقته بالافكار اللاعقلانية لدى نزلاء الاصلاح والتأهيل الأردنية، *مجلة الجامعة الاسلامية للدراسات التربوية والنفسية* ، 135-159. http://www.iugaza.edu.ps/ar/periodical/ ISSN 1726-6807 (زيارة 2022/10/23)

- Albern, K., & Albern, M. (2000). **Les thérapie familiales systémiques**. Paris: MASSON.
- Balas, L. L. (2008), **l'approche systemique en santé mentale** (éd. 2), Les presse de l'Université de Montréal.
- Delage, M. (2008), attachement à l'adolescence, applications thérapeutiques. *cahiers crotiques de thérapie f amilaile et de pratique de reseaux , 1* (4), pp. 79-97. DOI 10.3917/ctf.040.0079
- *https://www.cairn.info/revue-cahiers-critiques-de-therapie-familiale-2008-1-page-79.htm (visiter 17/07/2022)*
- Green, A. (1995). La déliaison. *Littérature* (3), pp. 33-52. https://doi.org/10.3406/litt.1971.1928 https://www.persee.fr/doc/litt_0047-4800_1971_num_3_3_1928 *(visiter 22/03/2019)*
- Luigi, O., Bermardini, M., Romano, C., & Veglia, A. (2008), Le double visage de la lune, la crise de l'adolescence selon une perspective systémique, *Cahiers critiques de thérapie familiale et de pratiques de réseaux , 1* (40), pp. 45-58. DOI 10.3917/ctf.040.0045
- https://www.cairn.info/revue-cahiers-critiques-de-therapie-familiale-2008-1-page-45.htm *(visiter 02/12/2021)*
- Thibierge, S. (1999), *L'imageet le double, la fonction spéculaire en pathologie* (Vol. Collection psychanalyse et clinique), érés.